شعر صبري

في الحادي والعشرين من شهر مارس من سنتنا هذه نزع الشعر العربي عن رأسهِ عمامة الشيخة ونشرها للموت فكانت الكفن الذي طوي فيهِ بقية شيوخ الادب المرحوم اسماعيل باشا صبري

كان رحمهُ الله من الرجال الذين نشأوا في تاريخ لا يتشيء رجلاً وجلاوا في غير زمنهم ليجيء بهم زمنُهم بعدُ، وهؤلاء ان لم يكن فيهم قوة اكبر من القوة فهم أقدار وأحداث تولد وتنشأ وتنمو في اسلوب انساني ليتم بها شيء كان نقصاً ويحسن شيء كان هجنةً ويوجد امر كان عدماً ثم ليكون للزمن منها حدود يبدأ عند الواحد منها فيتغير فيهِ ويتحول بهِ ويخرج معهُ في بعض معانيهِ زمناً جديداً في رجل جديد

كذلك كان صبري في مَنْحىً من مناحي الشعر وكان البارودي — رحمهما الله — في مَنْحىً آخر فهما طرفا المحور الذي استدار عليهِ هذا الفلك ليبدأ بعد تاريخهِ الميت تاريخاً حيًّا وليخرج من الجوّ القاتم في اغراض الارض الى الفضاء المشرق بمعاني السماء ثم لينفض عنهُ في هبّ الرياح العلوية ما لصق بهِ من طباع اهلهِ واخلاقهم ويُطلق بها ما فتح الزمن عليهم من ابواب هذه الحرفة. فكان الشعر في حاجة الى رجل كالملك فاصاب رجلين وعلم الله ما رأيت في كل من رأيتهم من الشعراء نفساً تبدُّ منهما ولا خُلُقاً يجري في اخلاقهما ولا ظرفاً ولا رقة ولا ادباً ولا شيئاً يصلح ان يكون شرحاً منهما او توكيداً لشيء فيهما او تقوية لمعنى من معانيهما كأنما وجدا ليكون احدهما مبدءا والآخر نهاية وليتفردا انفراد الطرفين من المسافة بالمدّة ما بلغت

كان الشعر لعهدهما بقية رثّة في معرض خليق مما كان يسميهِ ادباء الاندلس بالاغراض المشرقية وطريقة المشارقة وهم يعنون بذلك الصناعة والتكلف للبديع والانصراف الى اللفظ واستكراههُ على الوجه الذي ارادوا الى ما يتشعب من ذلك ويخرج او يدخل في بابهِ . وقد كان هذا ومثله مما يُساغ ويحتمل في القرن الثامن واكثر التاسع للهجرة ثم في ايام بعد ذلك غير انهُ بلي وتهتك في مصر خاصة ولم

يبقَ منهُ الى منتصف القرن الثالث عشر الا رقع وخيوط في قصائد ومقاطيع

ثم كان اكثر الشعراء يومئذٍ أعا يحترفون من الادب صناعة كسائر المهن والصناعات التي بها قوام العيش لهؤلاء المتأكلين والمتكسبين من السوقة والمرتزقة

***

ظهر البارودي ونبغ في شعره قبل ان يقول صبري الشعر بسنوات ولكن الادب الفارسي والجزالة العربية هما اللذان تحولا فيهِ. ثم نبغ صبري بعد ذلك بزمن فتحول فيهِ الادب الافرنجي والرقة العربية وهذا موضع التفاوت في شعر الرجلين اللذين اقتنعا الخيال الشعري من طرفي الارض وكلاهما يذهب مذهباً ويرجع الى طبع ويروض شعرهُ على وجه . فالبارودي يستجزل ويجمع الى سبكر الجيد قوة الفخامة وشدة الجزالة ثم يعترض الخيال من حيث يهبط على النفس في ممر الوحي. وصبري يسترقُّ ويضيف الى صفاء لفظهِ جمال التخير وحلاوة الرقة ويعارض الفكر من حيث يتصل بالقلب . والبارودي لا يرى الا ميزان اللسان يقيم عليهِ حروفهُ وكلماتهِ وصبري لا يرى الا ميزان الذوق الذي هو من وراء اللسان . وقد يسّرت لكليهما اسباب ناحيتهِ في احسن ما يتصرّف فيهِ فجاء البارودي حافظاً كأنهُ مجموعة من دواوين العرب والمولّدين وجاء صبري مفكّراً كأنهُ مجموعة اذواق وافكار . وهما يشتركان معاً في التلوُّم على صنعة الشعر والتأني في عملهِ وتقليبهِ على وجوه من التصفّح وتمحيصهِ بالنقد والابتلاء لفظاً لفظاً وجملة جملة ثم مطاولة معانيهِ ومصارعتها كأنما ينتزعان محاسنها من ايدي الملائكة . وانا اعرف ذلك فيهما وقال لي صبري باشا مرة وقد جاريتهُ في بعض هذا المعنى انهُ يعلم هذا من البارودي ومن نفسهِ . قلت افيبلغ بهِ ذلك ان يمحو بياض اليوم في سواد بيت واحد . قال وفي سواد شطرة احياناً . وليس ينقصهما هذا الامر شيئاً فان خير زهير في حولياتهِ معروف وقد عمل سبع قصائد في سبع سنين يحوك القصيدة منها في سنة . ونقلوا عن مروان بن ابي حفصة انهُ قال كنت اعمل القصيدة في اربعة اشهر واحككها في اربعة أشهر واعرضها في اربعة اشهر ثم اخرج بها الى الناس فقيل هذا هو الحولي المنقّح

كان مرجع البارودي الى الحفظ فنبغ في وثبات قليلة اما صبري فاحتاج الى زمن حتى استحكمت ناحيتهُ وآتتهُ اسبابهُ على الاجادة لان مرجعهُ الى الذوق وهذا يكتسب بالمران ويتضج عند نضوج الفكر ولا يأتي بالماء والرونق حتى تأتي لهُ اسباب

كثيرة . وانت تعرف ذلك في الرجلين من اوائل شعرهما فقد رثى البارودي أباه في سن العشرين بابياته الدالية الشهيرة التي مطلعها

لا فارس اليوم يحمي السرح بالوادي طاح الردى بشهاب الحي والنادي

وهي ثمانية عشر بيتاً وجيدها جيد وكانها خرجت من لسان اعرابي وانماجاءته من صنعة الحفظ كالذي اتفق للشريف الرضيّ في ابياته الخائية التي كتب بها الى ابيه وعمره اربع عشرة سنة وكان ابوه معتقلاً بقلعة شيراز ومطلعها

أبلغا عني الحسين ألوكاً ان ذا الطود بعد بعدك ساخا

والشهاب الذي اصطليت لظاه عكست ضوءه الخطوب فباخا

هذا على ان البداية كما يقال مزلّة . وقد وقفنا الى الوقوف على اول ما نشر من شعر صبري باشا وذلك قصيدتان نشرتا في مجلة روضة المدارس في مدح اسماعيل باشا فنشرت الاولى في العدد الصادر في غاية شوال سنة ١٢٨٧ للهجرة (١٨٧٠ للميلاد) ونشرت الثانية في عدد شهر ربيع الآخر من سنة ١٢٨٨ هـ (١٨٧١ م) وبينهما خمسة اشهر كانت وثبتهُ فيها ضعيفة متقاصرة مما يدل على بطء نضجهِ بطبيعة الاسباب التي تسبب بها الى الشعر . وكانت الروضة يومئذٍ تنشر لطائفة من فحول دهرهم كالسيد صالح مجدي ورفاعة بك رافع ومحمد افندي قدري « وناظمة الزمان محمد افندي رضوان » وغيرهم . وكانت تستقبل قصائدهم بسجعات داوية مفرقعة هي لذلك العهد اشبه الاشياء بطلقات مدافع التحية للملوك والامراء . فلما نشرت لصبري قالت في القصيدة الاولى « تهنئة بالعيد الاكبر للخديوي الاعظم بقلم اسماعيل صبري افندي » . وقالت في الثانية « قصيدة رائية في مدح الحضرة الخديوية من نظم الشاب النجيب اسماعيل صبري افندي من تلامذة مدرسة الادارة » . ومطلع القصيدة الاولى

سفرتْ فلاح لنا هلالُ سعودِ وغدا الغرام بقلبيَ المعمود

ولا شيء فيها اكثر من حروف المطبعة . . . ومطلع الثانية

أغرّتكَ الغراء أم طلعة البدر وقامتك الهيفاء ام عادل السُّمر

وفي هذه القصيدة بيت وقفت عنده أرى صبري باشا في صبري افندي كأنهُ خيالهُ مولود يستهلّ وذلك قولهُ

فطوّلْ من الهجران علّ وقوفنا يطول معاً يا قاتلي ساعة الحشر

ويكاد هذا البيت يكون اول انقلاب للفكرة فيهِ وهو غريب والتأمل فيهِ أغرب ولكنهُ يدل على خيال سيثب يوماً على اقطار السموات

وفي ذلك الزمن عينه كان البارودي شهاباً يتلهّب وكان قد بلغ مبلغهُ واستجمع أسباب نهايتهِ بل هو نظم قبل ذلك بست سنوات قصيدتهُ الشهيرة

أخذ الكرى بمعاقد الاجفان وهفا السُّرى بأعنّة الفرسان

فلم يكن ليذهب وجه الشعر عن صبري ولم يكن ليغضي عن احتذاء هذه الصنعة البارعة ويأخذ في غيرها لولا ان فيهِ طبعاً مستقلاً يذهب الى كمالهِ في أسلوب آخر كاسلوب كل زهرة في غصنها . وأخص احوال صبري انهُ لم يرد ان يكون شاعراً فجاء اكبر من شاعر وكان السبب الذي صرفهُ من ناحية هو نفسه الذي جاء بهِ من ناحية أخرى

***

ينبغ الشاعر باربعة اشياء لا بد منها : طريقة الدرس التي عالج بها الشعر . وكتب هذه الطريقة . والرجال الذين هم امثلتها في نفسه . ثم . . وبالله من ثم هذه فهي اللمحة السماوية التي تشرق على فؤاد الشاعر من وجهٍ جميل . والثلاث الاولى تنشىء نبوغاً معروفاً في نوعهِ ومقداره ولكن الاخيرة هي طريق القدر التي لا يعرف آخرها . واذا تجددت في حياة الشاعر او اتصلت تجدد بها نبوغهُ او اتصل فعلى قدر ما يحب تحبوهُ السماء من أسرار الجمال ، وعلى نفسها اجل اسباب الشعر واجل معانيهِ وأجل غاياتهِ فهي هي المادة التي تؤلف بين نفس الشاعر وبين معنى الجمال الشعري في هذا الكون كله . واذا انت نزعت النظرة والابتسامة — وهما عنصرا تلك المادة — من حياة الشاعر نزعت الحياة نفسها من شعرهِ فما يبقى منهُ الاّ انهُ مقبرة للالفاظ والمعاني وتسمع شعرهُ فلا تجد ما تجزيهِ بهِ أحسن من قولك يرحمك الله . . . وصبري لم يدرس الشعر في الكتب اكثر مما درسهُ في الوجوه والعيون وقد عالج هذا الشعر في بدايتهِ ليتأتى اليهِ من طرقهِ البعيدة . اما الرجال الذين كانوا امثلتهُ فكانوا رجال الظرف والرقة والنكتة المصرية الشهيرة التي انفرد بها الطبع المصري ونص عليها علماء البلاغة كالسكاكي وغيره . بل كان عصرهُ كلهُ عصر هذه النكتة فتحولت في طبعهِ الرقيق المبتكر تحولاً رقيقاً مبتكراً أرجعها الى الظرف المحض الذي اجتمعت فيهِ كل طباعهِ كما يجتمع السحاب من الماء

ولقد كان في شعره احق الناس بقول ابن سعيد المغربي

أسكان مصر جود النيل أرتكم فأكسبكم تلك الحلاوة في الشعر
وكان بتلك الارض سحرٌ فما بقي سوى أثر يبدو على النظم والنثر

واني أعلم انهُ كان دائم الحب يمزج ذكرى ماضيهِ بحاضره فيخرج منهما حبًّا جديداً . وكان الرجل كأنهُ مجروح القلب فلا يزال يئن حتى في بعض انفاسهِ إذ يرسل النفس الطويل بين هنيهة واخرى كأنهُ يريد ان يطمئن ان نفسه فيهِ أو أن شيئاً باقياً في نفسهِ وتلك همهمة لا تكون في شاعر من الشعراء بغير معنى

كانت النظرة والابتسامة تتمثل لهُ حيث شاء وتعترضهُ حيث اراد ان يراها فيجد في كل شيء روحاً من الشعر ويقرأ لمحاتهـا متى التمست وكان يعيش في ذات نفسه كأنهُ معنى في قصيدة هو أمير أبياتها

فشاعرنا هذا اخرجهُ اثنان :الظرف والجمال وهذا سر إبائهِ ان يُعدَّ من الشعراء لانهُ ارفع من ان يدخل بينهم في هذه المحنة والبلوى التي ابتلوا بها . . . .

ولقد مرَّ صبري في اواخر عمرهِ بمحو شعرهِ لوانهُ كان في متناول يده على انهُ محا منهُ باهمالهِ اكثر مما أثبت . وعلمت منهُ انهُ لم يدوّن شيئاً وانهُ ينسى ما يقولهُ فكأنهُ يوجد بسبب واحد ويمحق بسببين. وقديماً كان كبار العلماء متى انتهوا الى التحقيق رأوا عملهم كلهُ بداية ورأوا ما فعلوا باطلاً فغسلوا كتبهم أو احرقوها ولكنا لم نعرف هذه الطبيعة في شاعر بعد عصر الكتابة والتدوين وان كان بعضهم يأنف لنفسهِ ان يعد من الشعراء وهو مع ذلك يجمع يدهُ على شعرهِ كالشريف الرضي الذي يقول

مالك ترضى أن تعد شاعراً بعداً لها من عدد الفضائل

ويقول في مدح ابيهِ

إني لارضى ان اراك ممدَّحاً وعلاك لا ترضى بأني شاعرُ

ومثلهُ ابو طالب المأموني وآخرون يدَّعون ذلك دعوى وفي النفس ما ليس في قلوبهم

ولافراط صبري في الظرف والجمال وقيام شعرهِ على هذين الركنين جاء مقلاً من اصحاب القصار وزاد اقلالهُ في قيمة شعرهِ فخرجت مقاطيعهُ مخرج الشيء الطريف الذي يتعجب منهُ في وجودهِ اكثر مما يتعجب منهُ لقلة وجودهِ . وبذلك رجع تعب المكثرين والمطيلين اذ كان لا يقول الاَّ فيما تؤاتيهِ السجية وينزع لهُ الطبع

فيدنو مأخذهُ ويكثر بقليلهِ ويرمي منه بمثل الحجة والبرهان فيطلس بهما على كلام طويل وجدل عريض

ولا يعيب القولَ انهُ مقل اذا كثرت حسناتهُ بل ذلك اعون لهُ على القلوب والنفوس اذا اصابت في شعرهِ ما يقربها بطلب المزيد منهُ . وقد عدوا بين المقلين في الجاهلية طرفة بن العبد وعبيد بن الابرص وعلقمة الفحل وعدياً بن زيد وسلامة ابن جندل وحصيلة بن الحمام والمتلمس والحارث بن حلزة وابن كلثوم وغيرهم اتينا على اسمائهم في الجزء الثالث من (تاريخ آداب العرب) ومن اولئك من يعرف بالقصيدة الواحدة كطرفة ومنهم من يعرف بثلاث قصائد كعلقمة او بأربع كعدي ابن زيد ومنهم من يعرف بالابيات المتفرقة ولا عبرة بما ينسب اليهم عند غير المصححين واهل التحقيق فان الحمل على شعراء الجاهلية كثير . وقد يعرفون الشاعر بالبيت الفرد لان العرب انما يعتبرون الشعر بمقدار ما يحرك من ميزانهِ الطبيعي الذي هو القلب لا بالطول ولا بالقصر وقد قالوا في بيت النابغة

ولستَ بمستبقٍ اخاً لا تلمهُ على شعث اي الرجال المهذَّبُ

انهُ لا نظير لهُ في كلام العرب وما ذلك الاَّ على الاعتبار الذي اشرنا اليهِ . وكانوا يسمون البيت الواحد يتيماً فاذا بلغ البيتين والثلاثة فهي نتفة والى العشرة تسمى قطعة واذا بلغ العشرين استحق ان يسمى قصيداً

وكان من الشعراء من يعتمد ان لا يجيء في شعرهِ الجيد بغير البيتين والثلاثة الى القطع الصغيرة كشاعرنا صبري باشا ومنهم عقيل بن علّفة كان يقصر هجاءهُ ويقول يكفيك من القلادة ما احاط بالعنق . ومنهم ابو المهوّس وكان يحتج لذلك بانهُ لم يجد المثل النادر الاَّ بيتاً واحداً ولم يجد الشعر السائر الا بيتاً واحداً . ومنهم الجاز قال لهُ بعضهم وقد انشده بيتين : ما تزيد على البيت والبيتين ؟ فقال : اردت ان أنشدك مذارعةً ؟؟؟ وابن لنكك المصري وابن فارس ومنصور الفقيه الذي كان يقال فيهِ : اذا رمح بزوجيهِ قتل . ولا نستقصي في هذا فلندعهُ فانَّ لهُ موضعاً

غير ان صبري كان لهُ مع جودة القاطيع جودة القصيد اذا قصَّد كقوم عُرفوا بذلك في التاريخ منهم العباس بن الاحنف وسواهُ . وكان من اسباب اقلالهِ ما اعلمني بهِ من ان طريقتهُ في اكثر ما ينظم معارضة معنى يقف عليهِ او تضمين حكمة او ضرب مثل على طريقة النظر واللاحظة او تدوين خطرة عرضت لهُ او

لطة اوحيت اليهِ . وهو ينزل في ذلك على النصفة والعدلة فلا يتحمل شيئاً ليس لهُ بل يدلّك بنفسهِ على الاصل الذي منهُ اخذ او المثال الذي عليهِ احتذى

قال لي مرة ان البستاني عقد حكمة فارسية في قولهِ

قضيت الهي بالعذاب فيا ترى باي مكان بالعذاب تدينُ
وليس عذابٌ حيثما انت كائن واي مكان لست فيهِ تكون

ثم قال فاخذت من هذا المعنى وقلت

يا رب اين ترى تقام جهنم للظالمين غداً وللاشرار
لم يُبقِ عفوك في السموات العلى والارض شبراً خالياً للنار
يا رب اهلني لفضلك واكفني شطط العقول وفتنة الافكار
وسر الوجود يشفّ عنك لكي ارى غضب اللطيف ورحمة الجبار
يا عالم الاسرار حسبي محنةً علمي بانك عالم الاسرار

والفرق بين الشعرين ان البستاني جاء بكلامهِ على طريقة المتصوفة التي يسمونها طريقة اهل التحقيق كابن العربي والششتري واما صبري فانظر كيف استوفى وكيف لاءم وكيف امتلأت اعطاف شعرهِ

وقد يأخذ المأخذ الدقيق الذي لا ينتبه لهُ الاّ المطلع الحاذق بصناعة الكلام كقولهِ

اذا ما صديق عقّني بعداوة وفوّقت يوماً في مقاتلهِ سهمي
تعرض طيف الود بيني وبينهُ فكسر سهمي فانثنيت ولم ارمِ

فهذا ينظر الى قول الحارث بن وعله

قومي هم قتلوا اميم اخي فاذا رميت يصيبني سهمي

ولكنهُ ليس بذاك فان اساس المعنى قولهُ « تعرض طيف الود بيني وبينهُ » وهو من قول العباس بن الاحنف

واذا ما مددتُ طرفي الى غيرك شُغّلت دونهُ فاراكا

فتأمل كيف ابدع في انتزاع المعنى وكيف جعل لهُ معرضاً جديداً وكيف اداهُ احسن تأدية في اللطف وجه كانهُ شيء مخترع

ومن شعرهِ السائر قولهُ في العناق وتلازم الحبيبين

ولما التقينا قرّب الشوق جهدهُ شجيّين فاضا لوعةً وعتابا
كأنّ صديقاً في خلال صديقهِ تسرّب اثناء العناق وغابا

وهذا المعنى على ابداعهِ فيهِ متداول واصلهُ لبشار — اظن — في قولهِ

وبتنا جميعاً لو تُراق زجاجة من الخمر فيما بيننا لم تَسرَّب

فابدع صبري في اخذهِ وجعل من هذه الزجاجة المنصدعة جوهرة تتألق . على اني لا استحسن قولهُ «كأن صديقاً» فما هذا بميثاق الاصدقاء ولو كان الصديق راجعاً من سفر الآخرة. واذا غلب واحد في الاخر فالآخر حامل بهِ . . . وقد اخذت انا هذا المعنى منهُ ولولاهُ ما اهتديت اليهِ فقلت في ذلك

ولما التقينا ضمَّنا الحب ضمةً بها كل ما في مهجتينا من الحبِّ
وشدَّ الهوى صدراً لصدر كأنما يريدُ الهوى إنفاذ قلبٍ الى قلبِ

***

واحسن ما نجد شعر صبري في الغزل والنسيب والوصف والحكمة فهي عناصر قلبهِ وذوقهِ ولا يتصرف معهُ اقوى ما يتصرف الاَّ في هذه الاغراض ولعلهُ ان جاوزها قصر معهُ شيئاً ما وضعفت أداتهُ ضعفاً ما لانهُ يكون شاعر الصنعة وهو يأباها ويكره ان يكون شاعراً من اجلها . وقلما يجاريهِ احد في تلك الاغراض وهو الذي فتح ابوابها وحسبك انهُ المثال الذي احتذى عليهِ شوقي بك . وقد ينقسم المعنى الواحد في رجلين حين يقدر فاذا لم يوجد احدهما لم يوجد الآخر وأنا ارى واعلم انهُ لولا صبري لما نبغ شوقي وكان هذا يختلف اليهِ يعرض عليهِ شعره ويرجع بآثار ذوقهِ فيهِ وكذلك كان يفعل خليفة البارودي حافظ بك ابرهيم . واسترفد شوقي من صبري باشا هذا البيت السائر

سوني جمالك عنا إننا بشرٌ من التراب وهذا الحسن روحاني

فهو لصبري باشا والوافدة سنة معروفة من قديم وهي غير الانتحال وغير السرقة وما يسمى إغارة وغصباً . وقد استرفد النابغة زهيراً فامر ابنهُ كعباً فرفدهُ والحكاية في ذلك مشهورة عنهُ وعن سواهُ

ولم يكن في مصر ممن يحسن ذوق البيان وتمييز اقدار الالفاظ بعضها من بعض والوان دلالتها كالبارودي وصبري وابراهيم المويلحي والشيخ محمد عبده رحمهم الله جميعاً . والبارودي يذوق بالسليقة وصبري بالعاطفة والمويلحي بالظرف والشيخ بالبصيرة النفاذة. وذلك شيء ركَّبهُ الله في طبيعة صبري لم يحصلهُ بالدرس اكثر مما حصلهُ بالحس ومن اجلهِ كان يفضل البحتري على غيرهِ . وهو بلا نزاع بحتري مصر كما لقبوا ابن

زيدون بحتري المغرب . وانك لتجد بعض الالفاظ في شعر الرجل كأنها شعر مع الشعر فتقف على العبارة منها وقليك يتنفس عليها كأنها انما وضعت لقليك خاصة فهي تغمز عليهِ غمزاً وكأنها نفثة ملك من الملائكة جاءتك في نفس من انفاس الجنة

ويمتاز نسيبهُ بانهُ يكاد يكون في طهارتهِ وعفتهِ سوءاً من جمال الشمس والقمر وهو عندي انسب من العباس بن الاحنف الذي صرف كل شعرهِ الى هذا المعنى . ولو ان عصرهُ كان عصر ادب صحيح لأُخل كل شعراء هذا الباب من ابن ابي ربيعة الى طبقة عشاق العرب الى ائمة الطريقة الغرامية لآخر القرن السابع

ومن غزلهِ البديع قولهُ

يا من اقام فؤادي اذ تملكهُ ما بين نارين من شوق ومن شجن
تفديك اعين قوم حولك ازدحمت عطشى الى نهلة من وجهك الحسن
جردت كل مليح من ملاحتهِ لم تتقِ الله في ظبي ولا غصن

وقولهُ

أقصر فؤادي فما الذكرى بنافعة ولا بشافعة في رد ما كانا
سلا الفؤاد الذي شاطرتهُ زمناً خفق الصبابة فاخفق وحدك الآنا

ويا رحمة الله للقلب الذي يفهم هذا البيت فانهُ ليجن بهِ من يكون فيهِ استعداد لهذا النوع من الجنون

ومن قلائدهِ الغرامية قولهُ

يا آسيَ الحيّ هل فتشت في كبدي وهل تبيّنت داء في زواياها
أواهُ من حرق أودت بمعظمها ولم تزل تتمشّى في بقاياها
يا شوق رفقاً باضلاع عصفت بها فالقلب يخفق ذعراً في حناياها

ولهُ قصيدة (تمثال جمال) وقد نظمها لتنقل الى الفرنسوية ومن عيونها قولهُ

وابسمي من كان هذا ثغرهُ يملأُ الدنيا ابتساماً وازدهاء
لا تخافي شططاً من انفس تمتر الصبوة فيها بالحياء
راضت النخوة من اخلاقنا وارتضى آدابنا حسن الولاء
فلو امتدت امانينا الى ملك ما كدرت ذاك الصفاء

والشعراء من اول تاريخ الادب الى اليوم يقولون في معنى قولهِ لا تخافي شططاً الابيات وما منهم من وفق الى مثل هذا البيت الاخير وان كان

بعضهم بلغ الغاية كابن نباتة السعدي والسري الرفاء وغيرهما

ومن أبدع ما اتفق لهُ في الوصف ابيات في الدواة تخلص في آخرها الى مدح النبي صلى الله عليهِ وسلم وهو تخلص ليس في الشعر العربي كله مثلهُ في الابداع وحسن الاختراع يقول فيها :

اكرمي المسلم وامنحي خادميهِ ماءك الغالي النفيس الثمينا
وابذلي الصافي الطهّر منهُ لمداة السرائر المرشدينا
واذا انظلم والظلام استعانا يوم نحس باجهل الجاهليتا
واستمدا من الشرور مداداً فاجعليهِ من قسمة الظالمينا
واقذفي النقطة التي بات فيها غضبُ القاهر المذلّ كيتا
ليراع امرىء اذا خط سطراً نبذ الحق وارتضى المين دينا
واذا كان فيك نقطة سوء كونت من خباثة تكوينا
فاجعليها قسط الذين استباحوا في السياسات حرمة الاضعفينا
واذا خفت ان يكون من الصخ ر جلاميد ترجم المسامينا
فايحلي بالمداد بخلاً وان اعطى متر فيهِ المثين ثم المئينا
فاذا اعوز المداد طبيباً يصف الداء دائباً مستمينا
فامنحيهِ المراد منًّا وعرفاً واستطيبي معونة المحسنينا
واذا مهجة الحمائم أسدت نقطةً سرّها الزكيّ المصونا
فاجعليها على الودّات وقفاً وهبيها رسائل الشيّقينا
فاذا لم يكن بقلبك الاّ ما اعدّ الإخلاص للمخلصينا
فاجعليهِ حظي لاكتب منهُ شرح حالي لسيد المرسلينا

هذا والله هو الشعر وما وفق الى مثلهِ احد كائناً من كان في هذ العصر

***

ولا نطيل بالنقل من شعرهِ وتتبع اغراضهِ فهو كالالماس في الشمس يشع من كل جهة ولا يختلف ضوءهُ الا في بعض اللون مما يكون الاجمل فيها كلهُ جمال وبجٌ من الشعاع ما لا تجد حسنهُ في الشعاع نفسهِ واحياناً يرق كبعض البلور فيمتص حرارة الشمس ويستوقد بها في ذاتهِ ليضرم ما وراء قلبهِ وما وراءهُ الاّ قلوبنا الحزينة عليهِ رحمه الله

مصطفى صادق الرافعي